الهُدنة والذكريات

قال الباشا للاظ بك بعد أن تنهد تنهيدة طويلة:

- أخيرًا يا لاظ بك، اعترف الباب العالي رسميًّا بسيادتنا على سورية..
- وكيف ذلك يا أفندينا؟
- لقد وقّعوا معاهدة في كوتاهية مع ابننا إبراهيم باشا تتضمن ذلك يا لاظ.
- وماذا حصلوا عليه في المقابل أيها العزيز؟
- تنسحب قواتنا من الأناضول وتبقى في سورية فقط..
- تهانينا يا أفندينا على ضم سورية لحكمكم الرشيد.
- كم كنت أتمنى يا لاظ أن يتم ذلك برضاهم، وليس رُغم أنفهم، فأنت تعلم يا لاظ أن في بلاد المسلمين لابد أن يمنحك الخليفة ولاية، أي بلاد تحكمها، وإلّا اعتبرك الناس خارجًا على الخلافة، وهو ما يجعلهم يثورون عليك وقد يقاتلونك أيضًا.
- على أية حال، لقد قامت ثورات بالفعل على إبراهيم باشا في الشام يا أفندينا.
- ولكنها إلى الآن بسبب التغييرات التي أحدثها في بلادهم، ولم يعتادوا عليها، وليس بسبب خروجه على الخلافة.

- إنها تغييرات تخالف مجتمعات المسلمين يا أفندينا في كثير من الأمور، وتسمح للغرب بالتدخل في حياتهم!

- لقد سئمت من الذين يرفضون كل عادات الغرب يا لاظ!

- لقد كنت أنت نفسك يا أفندينا تندهش من بعض عاداتهم، وخاصة اهتمامهم بما تركه الفرعون من أصنام وتماثيل وغير ذلك!

فضحك الباشا وتذكر لقاءه مع المسيو شامبليون الذي فك رموز اللغة المصرية القديمة، وكان قد زاره يستغيث من تدمير الآثار، ويطلب منه فرمانًا ليسمح له بالتوجه مع بعثته العلمية إلى صعيد مصر لدراسة الآثار. والواقع أن الباشا كان يحتاج الحجر الجيري بكميات كبيرة لمصانعه ومعامله، وكانت هناك أعداد كبيرة جدًا من التماثيل الفرعونية مصنوعة من هذه الأحجار، فكان رجاله يستخدمونها، وقد اعتبرها الباشا كنزًا ثمينًا، وعلى الرغم من وجود المحاجر بالقرب من هذه المعابد الفرعونية، إلّا أن العمال كانوا يستخدمون التماثيل الجاهزة بدلًا من تضييع الوقت في استخلاصها من المحاجر، مما أثار غضب علماء الآثار في العالم، فقرروا التدخل لوقف هذه الكارثة، وقد سمح الباشا لشامبليون باستكمال أبحاثه، وقد ابتهج شامبليون كثيرًا بحفاوة استقبال الباشا له في الإسكندرية، فأرسل رسالة إلى أخيه في فرنسا قال فيها:

"حظيت باستقبال من قِبَل الباشا هذا الصباح، ويقيم سموه في عدة بيوت جميلة مبنية بالخشب، لكن بعناية فائقة مثل قصور القسطنطينية، وتقوم هذه الأبنية البهية المنظر في الجزيرة القديمة للمنارة، وقادنا السيد دروفتي على متن عربته التي يجرها حصانان نشيطان، وكانت تسير بسهولة رائعة في طرقات الإسكندرية الملتوية والضيقة بفضل مهارة الحوذي الكبيرة، وكان يتبعنا شبابنا في ثيابهم الرسمية على متن دواب مندفعة. نزلنا درجات قاعة الديوان، فألفينا أنفسنا في قاعة واسعة ممتلئة بالموظفين، فأُدخلنا مباشرةً إلى قاعة ثانية يسطع فيها ضوء النهار، حيث كان يجلس محمد علي في زاوية بين نافذتين في بذلة شديدة البساطة. ويمسك في يده غليونًا مثقلًا بالماس، وكانت قامته متوسطة وكل هيئته توحي بالبشاشة، وهو ما يفاجئ في رجل مشغول بمثل تلك الأمور الكبيرة، والمثقل بكثيرٍ من الهموم، كان باسم الوجه وعيناه تتقدان نشاطًا، وهو ما كان يتعارض مع لحية بيضاء مسترسلة حتى صدره، وبعد أن سأل سموه عن أخبارنا، رحب بنا وسألني عن مشاريع رحلتنا، فقلت إني أرغب في الذهاب حتى الشلال الثاني، وإني أطلب من سموه فرمانات بذلك، فمُنِحت لي مباشرةً بالإضافة إلى حارسين من رجال الباشا لمرافقتنا، ولحمل كل الناس على احترامنا حيثما توجهنا، وأكرمنا بقدح قهوة بدون سكر، لنستأذن بعد ذلك من سموه الذي رافقنا بتحيات ليس هناك ألطف منها.".

واستمر حديث الذكريات بين الباشا ولاظ حول تلك الآثار التي أهدى منها كثيرًا لدول أوروبا، من بينها مسلات، وكيف كانت تلك الدول تحاول حل مشكلات نقل هذه المسلات من مصر إلى أوروبا،

وقد استغل دروفتي بالطبع علاقته بالباشا، وعدم اكتراث الباشا بالآثار فحصل منها على نصيب الأسد،

وكان الباشا يستقبل الرسائل والتقارير أحيانًا كثيرة في وجود لاظ بك الذي لم يكن يفارقه إلا قليلًا، وكان من بين الرسائل والتقارير التي تصل للباشا نتائج المبعوثين في الخارج، والتي كان يتابعها بنفسه ويحرص على الرد عليها.